مجلة علوم التربية

دورية مغربية نصف سنوية

ملف خاص عن الكفايات

- توجهات البحث حول تكوين المدرسين
- تربية المستقبل ورهان تحقيق التنمية البشرية
- البحث العلمي ومجتمع المعرفة في المغرب
- تعليم الكبار في عصر تكنولوجيا المعرفة
- التعليم العتيق والبنية التقليدية في المغرب
- جودة المراقبة المستمرة
- مؤتمر اليوم العالمي للفلسفة

العدد الثالث والثلاثون- مارس 2007

تربية المستقبل
ورهان تحقيق التنمية البشرية

● ذ. محمد بوصحابي*

استهلال:

تعتبر «المبادرة الوطنية للتنمية البشرية «INDH» إطارا مؤسساتيا يحتضن العديد من المشاريع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية، وقد ساهمت هذه المبادرة في التأسيس لثقافة جديدة قوامها القرب والجهوية، وهدفها محاربة الإقصاء الاجتماعي عبر انخراط الجميع (أحزاب-نقابات- جمعيات- مؤسسات- أفراد) في إنجاح هذه التجربة الوطنية.

وتجدر الإشارة إلى أن تحقيق التنمية لا يمكن أن يتم دون وساطة المدرسة باعتبارها قاطرة للإصلاح في أبعاده المختلفة، لأنه كلما استفحل خطاب الأزمة الاجتماعية إلا وتم التفكير في مراجعة نظم التربية والتكوين حتى تستجيب أكثر لتطلعات الأفراد والمجتمعات، لذا سنحاول في هذه الورقة مساءلة دور «تربية المستقبل» أو المدرسة الحديثة في تحقيق التنمية، كما نروم توضيح العلاقة بين التربية والتنمية من خلال تفعيل برنامج المبادرة الوطنية للتنمية البشرية فضلا عن إبراز دور المدرسة الحديثة في تحقيق المشروع المجتمعي المأمول.

1. في تحديد المفاهيم، وضبط الخيط الناظم بين التربية والتنمية:

لا ينكر أحد أهمية النقلة النوعية التي حدثت في مجال التنظير التربوي، حيث تم الانتقال من إبدال "التربية التقليدية" إلى إبدال "التربية الحديثة" التي تنشد تكوين الإنسان وتأهيله للانخراط في مسار العولمة

* أستاذ باحث.

بما يطرحه من تحديات وإغراءات. لذلك سنسعى إلى توظيف مصطلح "التربية" بمفهومه الواسع الذي يشمل التعليم والتعلم وتنمية الشخصية وتأهيل الفرد من أجل تحقيق ذاته وتلبية مطالب مجتمعه وعالمه. والملاحظ أن مضمون هذا التعريف يصب في خانة التنمية التي أضحت خيارا استراتيجيا لا بديل عنه، ذلك أن تطور المجتمعات رهين بمدى اهتمامها بالعنصر البشري الذي تعتبر المدرسة أهم حاضن له، لأنه يشكل النواة الصلبة لكل تنمية باعتبار هذه الأخيرة "مجالا للتفاوت الخلاق القائم على تحرير القدرات الشخصية والدوافع الإبداعية التي تحقق مبدأ التفاضل القيمي، ذلك الذي يستعيد من خلاله الإنسان وجوده على نمطه الخاص"[1].

ويظهر جليا أن بلوغ التنمية لا يمكن أن يتم دون الاعتراف بالفرد كنواة للمجتمع، ودون الاهتمام بتربية المستقبل التي تستدعي إعادة النظر في تنظيم المعرفة، ومد الجسور بين التخصصات، والنهل من تكنولوجيا الاتصال والمعلومات لا كوسائل فقط، بل كطرائق في التفكير، ومناهج في العمل، لهذا "يجب على تربية المستقبل أن تجعل التعليم متمحورا حول ما هو كوني وبشري، إن معرفة الإنسان تقتضي وضعه في العالم والكون الذي هو سياقه"[2].

إن تربية المستقبل في علاقتها بالتنمية تواجه تحديين اثنين: أولهما: كيف يتفاعل الإنسان مع متغيرات حاضره ومستقبله أملا في حياة أكثر استقرارا وعطاءا؟ وثانيهما: كيف يدبر المجتمع الإنساني موارده البشرية لحل مشكلاته التي تتزايد بوتيرة سريعة؟ والجدير بالذكر أن المدرسة المغربية واعية بجسامة هذين التحديين، بل وتحملت وزرهما منذ فجر الاستقلال غير أنها اليوم تضطلع بأدوار ووظائف جديدة «قادرة على الاستجابة لأهداف وخصوصيات وإكراهات الطلب الاجتماعي والاقتصادي لتربية وتعليم وتكوين الموارد والقوى البشرية في أوضاع كونية جديدة سريعة التبدل والتغير مليئة بالرهانات والتحديات»[3]، سيما ونحن نعيش زمن الثورة المعرفية والتكنولوجية الجديدة، ومن سيتحكم فيها، سيكون مؤهلا أكثر للانخراط في مجتمع المعرفة الذي أصبحت فيه السلطة أو الثروة أو النفوذ، مقومات لا تعود فقط إلى أصول مادية اقتصادية أو عسكرية، بل إلى المعرفة ذاتها، أي أن التسابق لم يعد نحو التسلح، بل أضحى نحو المعرفة، ولعل هذا ما يفسر دعوة مفكري ما بعد الحداثة إلى الحديث عن نهاية التربية بمفهومها التقليدي، وتبشيرهم بتربية حديثة (تربية المستقبل) تراهن على إكساب المتعلم كفاية التموضع في العالم وذلك من خلال تأهيله معرفيا ومهاريا ليكون قادرا على تحقيق طموحاته الشخصية من جهة، ومشاركا في ورش التنمية الاجتماعية والإنسانية من جهة أخرى.

وفي هذا السياق، نتساءل: ما هي بدائل ووظائف المدرسة الوطنية الأكثر ملاءمة لهذا الزمن العولمي الجديد؟ ما هي الوسائل المتاحة للعبور إلى مجتمع المعرفة والإنتاج؟ كيف نجعل المدرسة شأنا وطنيا بامتياز؟

إن التربية الحديثة ستظل ـ دوما ـ "منطلقا لتحقيق الآمال ومخرجا لإصلاح خرائب الآباء على حد

تعبير جون ميلتون"[4] فهي مدخلنا إلى التنمية وذرعنا الواقي ضد الاختراق الثقافي الناتج عن عولمة الأفكار والمعتقدات والإيديولوجيات التي تنزع إلى الهيمنة والاستتباع الحضاري.

ولمواجهة هذه التحديات، انخرطت بلادنا في ورش الإصلاح المتعدد الأبعاد، عبر تبني مقاربة شمولية تمتح مرجعيتها من خطابي الهوية والانفتاح غير أننا سنقتصر على مساءلة ورش الإصلاح التربوي في علاقته بالتنمية المنشودة وذلك من خلال تفعيل وأجرأة مجموعة من الدعامات التي دبجها الميثاق الوطني للتربية والتكوين.

2 . تحقيق التنمية البشرية من منظور الإصلاح التربوي

لقد انخرطت المدرسة المغربية منذ وقت مبكر في مشروع التنمية البشرية، حيث تم التوافق حول ميثاق جديد للتربية والتكوين (1999م) من بين أهدافه : تأهيل الإنسان المغربي، وربط التعليم بالتنمية، وتحقيق التصالح بين المدرسة والمجتمع، لهذا بادرت المدرسة المغربية إلى الانخراط غير المشروط في المبادرة الوطنية للتنمية البشرية من خلال نهج سياسة القرب والجهوية ونشدان الجودة. كما اتخذت الوزارة الوصية من المبادرة شعارا لها خلال الموسم الدراسي الحالي بالنظر إلى الدور الهام الذي تنهض به المؤسسة التربوية من أجل اندماج الفرد داخل محيطه المحلي والوطني والكوني. وترسيخا لهذا التوجه، أطلقت الوزارة الوصية برنامجا وطنيا لتعميم التكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتصال بالمؤسسات التعليمية على مدى ثلاث سنوات بغلاف مالي يفوق مليار درهم حيث ستستفيد منه أزيد من ثلاثة آلاف مؤسسة.

إضافة إلى ذلك، تمت مراجعة البرامج والمناهج بما يتلاءم ومطلب التنمية إذ تبنى المشرع التربوي التدريس بالكفايات كمقاربة تتوخى تأهيل الفرد وإدماجه في محيطه.

3 . بيداغوجيا الكفايات: مقاربة براغماتية لربط التعليم بالتنمية

ترتكز بيداغوجيا الكفايات على ثلاث منظورات تؤثث الهندسة البيداغوجية الجديدة الهادفة إلى تأهيل الفردن وإشراكه في بناء الحاضر واستشراف المستقبل وهي كالآتي:

1 . المنظور المتمركز على المعرفة في بعديها البنائي والوظيفي.

2 . المنظور المتمركز على المتعلم (مواطن الغد)

3 . المنظور المتمركز على المجتمع.

وتتميز هذه المنظورات بالتداخل والتقاطع فيما بينها بهدف إدماج الإبداعات الثقافية للأفراد والجماعات في سياق الحاضر، وفتحها على آفاق أرحب وأوسع، ذلك أن علاقة المتعلم بمادة التعلم يجب أن تخضع لجاذبية الابتكار، وحس الإبداع تحقيقا لمبدإ الشرط الإنساني الذي يشكل جوهر التنمية البشرية، فهناك شبه اتفاق على ثلاث غايات رئيسية لابد أن تفي بها التربية في كل عصر وهي:

ـ إكساب المعرفة.

ـ التكيف مع المجتمع.

ـ تنمية الذات والقدرات الشخصية.

وقد أضاف عصر المعلومات بعدا تربويا رابعا، ألا وهو ضرورة إعداد إنسان العصر لمواجهة مطالب الحياة في ظل العولمة وهي الغايات الأربع التي وردت في تقرير اليونسكو «التعليم ذلك الكنز المكنون» والتي صاغها على الوجه التالي.

1 ـ تعلم لتعرف.

2 ـ تعلم لتعمل.

3 ـ تعلم لتكون.

4 ـ تعلم لتشارك الآخرين.[5]

وتسعى بيداغوجيا الكفايات إلى اقتراح أنشطة تعليمية تتلاءم وهذه الغايات الأربع حتى يتسنى للمتعلم اكتساب القدرة على حل المشكلات في وضعيات مختلفة وتبدو هذه الغايات الأربع التي ألح عليها تقرير اليونسكو، ذات علاقة وطيدة بمفهوم التنمية التي تطمح إليها المجتمعات النامية أو السائرة في طريق النمو، وذلك من خلال تفعيل التعلم الذاتي وتشجيع المبادرة الشخصية، وتفريد التعليم وإحداث مشروع المؤسسة، وإرساء نظام الشراكة التربوية، والتدرب على حل المشكلات، وهي أنشطة تقود حتما إلى مشاركة الفرد في تأهيل ذاته وتنمية محيطه وبلاده.

ولعل بيداغوجيا الكفايات بما تحتويه من أنشطة متنوعة، يمكن أن تستجيب لانتظارات وطموحات الأفراد والجماعات، كما يمكنها أن تشكل جسر عبور إلى التنمية المستدامة شريطة تعزيزها بمجموعة من الإجراءات المصاحبة حتى نضمن التطبيق الفعلي والسليم لها. ومن بين الأنشطة البيداغوجية ذات الصلة بمفهوم التنمية والتي تشكل الدعامات الأساسية لمدخل التدريس بالكفايات نذكر ما يلي:

أ ـ بيداغوجيا المشروع: يعتبر «مشروع المؤسسة» نواة صغرى للتنمية المحلية، فهو «برنامج إداري تربوي تطوعي مؤلف من سلسلة من الأعمال والإجراءات التي تتمحور حول مشروع واحد قد يستمر لمدة سنة كاملة أو أكثر».[6] ومن أمثلته تفعيل برامج الدعم التربوي والعناية بالضعاف من التلاميذ، وتوظيف خدمات الانترنيت ... وهي مشاريع تستهدف بشكل منسجم الحصول على أفضل النتائج في المدرسة، والرفع من مستوى جودة التعليم بها وتعميق ارتباطها بمحيطها واندماجها في مجالها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وتجدر الإشارة إلى أن مشروع المؤسسة ينهض على بعدين اثنين:

* بعد فردي ذاتي

* بعد زمني مستقبلي

إنه ببساطة انخراط في المستقبل وتفتح على آفاقه وإسقاط للذات في مساره، فهو عبارة عن خطة يعتمدها الشخص لتحقيق مقاصد محددة عن طريق توقعها وتوفير الوسائل اللازمة لبلوغها "إنه تمثل استشرافي لنتيجة مستقبلية يستهدف منها الشخص تحقيق مقاصده ومطامحه ورغباته وحاجاته"[7]. ومن تم فإن مشروع المؤسسة يرتبط بتفكير جماعي حول رهانات مشروع التعلم مما يفرض على المدرسة تجديد وظائفها التربوية بما في ذلك وظيفة الاندماج بدل الاكتفاء بالتكيف مع سوق الشغل وتقلباته.

ب ـ بيداغوجيا الإدماج: ترتبط بيداغوجيا الإدماج ببيداغوجيا المشروع انطلاقا من كون المشاريع البيداغوجية أنشطة إدماج حقيقية يكون فيها المتعلم عنصرا فاعلا، وتقوم أنشطة الإدماج "بوظيفة مركزية تتلخص في دفع التلميذ إلى حشد واستنفار عدة مكتسبات كانت موضوع تعلمات مستقلة، فالأمر إذن يتعلق بلحظة تعلم هدفها جعل التلميذ يدمج مكتسبات مختلفة ويمنحها معني"[8].

إن بيداغوجيا الإدماج تبتغي تأهيل الفرد ليكون قادرا على تشغيل معارفه واستدعائها في لحظات معينة لمواجهة مشكلات محددة في وضعيات مختلفة، أي أن أنشطة الإدماج تجعل من الفرد عنصرا فاعلا في بناء ذاته ومحيطه من خلال توظيف ما اكتسبه من تعلمات في حل المشاكل التي تواجهه، ولذلك فإن أنشطة الإدماج تناصب العداء للتلقي الجاهز، والسلبية في التحصيل، لتراهن على مواطن فاعل مشارك قادر على المساهمة في التنمية المحلية والإنسانية.

ج ـ بيداغوجيا الشراكة التربوية:

انتشرت هذه البيداغوجيا منذ أواسط الثمانينيات في مجال التعليم في بعض الدول الأمريكية قبل أن تنتقل إلى أوربا والعالم العربي، وقد نشطت الشراكة في المجال التربوي «بفعل ظهور التوجه إلى المحلي وبالأهمية المتعاظمة للأقاليم والجهات الاقتصادية والمدن والتجمعات السكنية في الأحياء»[9]. مما أتاح إمكانيات واسعة أمام المدارس للمبادرة والاستقلال في اتخاذ القرار، تلك المدارس التي تتحول إلى مؤسسات في مستوى التفاوض والدخول في علاقات تعاون مع محيطها الأمر الذي يعزز فرص المشاركة في التنمية المحلية نظرا لكون الشراكة أداة تنظيمية ومنهجية تمكن المدرسة من ولوج فضاء التنمية والانخراط الإيجابي في مسلسل التحديث والإصلاح، بحيث تنفتح كل مؤسسة على الأخرى في اتجاه تعزيز انفتاحها على محيطها. إن كسب رهان التنمية رهين بتحديث منظومتنا التربوية لتستجيب أكثر لطموحات الواقع، وهذا يقتضي التجديد المستمر لبرامجنا ومناهجنا التعليمية مع التركيز على الدعامات الآتية:

ـ التركيز على المتعلم.

ـ استبعاد فرض المعرفة الجاهزة لصالح التعلم بالاكتشاف وأسلوب حل المشكلات وطريقة المشروع.

ـ اعتماد تفريد التعليم والتعلم الذاتي.

ـ إكساب المتعلم كفايات ومهارات قابلة للنقل والتحويل من مجال إلى آخر.

ـ تعزيز التفاعل مع المحيط الاجتماعي وربط المحتويات المعرفية باهتمامات المتعلمين واحتياجاتهم.

ـ تدعيم الأنشطة غير الصفية.

والملاحظ أن هذه الدعامات تشكل جوهر بيداغوجيا الكفايات التي أصبحت مدخلا بيداغوجيا لتصريف معطيات إصلاح البرامج والمقررات الدراسية وفق ما تنص عليه بنود الميثاق الوطني للتربية والتكوين ووثيقة الكتاب الأبيض الخاصة بالاختيارات والتوجهات التربوية الهادفة إلى تأسيس مشروع مجتمعي ينطلق من المدرسة ليعانق آفاق التنمية المحلية والجهوية والكونية.

خلاصة:

ننتهي مما تقدم إلى أن تحقيق التنمية من منظور التربية الحديثة يقتضي تضافر جهود جميع الفاعلين التربويين، وجعل المدرسة شأنا وطنيا بامتياز يدحض أطروحة نهاية التربية ويحول دون تحميل المدرسة عبء فشل المخططات الاجتماعية، لكن رغم ذلك سيظل إيماننا قويا بقدرة تربية المستقبل على مجابهة التحديات رغم الصعوبات والإكراهات وشح الإمكانيات "لأننا لا نملك مفاتيح أبواب مستقبل افضل، ولا نعرف طريقا معبدا جاهزا،لكننا نسُكُّ الطريق بالمشي"[10].

الهوامش

1 ـ عزيز بومسهولي وعبد الصمد الكباص، "التنمية وتربية الإنسان"، مجلة فكر ونقد، عدد 59-60 ماي يونيو 2004، ص 37.

2 ـ العربي اسليماني، "المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل"، لإدغار موران، قراءة وتلخيص، مجلة علوم التربية، المجلد ، عدد52 ، أكتوبر 2003 ، ص 156.

3 ـ مصطفى محسن، "التربية وتحولات عصر العولمة" المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1 2005 ص 32.

4 ـ نبيل علي، "الثقافة العربية وعصر المعلومات"، سلسلة عالم المعرفة، عدد 562 ، يناير 2001 ، ص 290.

5 ـ نفسه، ص 307.

6 ـ محمد الدريج، "تطوير مناهج التعليم: معايير علمية، متطلبات الواقع أم ضغوط خارجية"، سلسلة المعرفة للجميع، منشورات رمسيس، عدد 023 ، ص 53.

7 ـ الغالي أحرشاو، "المشروع الشخصي للتلميذ" مقاربة سيكولوجية، مجلة علوم التربية، العدد 72 ، شتنبر 2004، ص 72

8 ـ محمد حمود، "بيداغوجيا الكفايات"، إعداد وتعريب، نشر مجموعة مدارس الملاك الأزرق، ط1، 2004، ص 50.

9 ـ محمد الدريج، مرجع سابق ص 159.

10 ـ العربي اسليماني، مرجع سابق، ص 159.

* أورد إدغارموران هذه القولة نقلا عن المفكر الإسباني "أنطونيو ماشادو/Antonio MACHADO